مقدمة

هل ثبت عبر التاريخ البشري أن إنساناً لديه قابلية للاستعمار؟
وهل ثبت أن شعباً أو أمة دعت استعماراً ليحتل أرضها ويسرق ثرواتها ويبيد سكانها؟
ما معنى القابلية؟

قد يكون للإنسان قابلية للأكل والشرب وقابلية للتطور الاجتماعي أو الاقتصادي. قد يكون لدى أمة قابلية للتفاهم في بيئة أخرى مع المناخ ونوع الأكل وغيره أما أن يكون للإنسان العاقل أو المجتمع أو الأمة قابلية للاستعمار فهذا مما يصدم العقل والنفس والمنطق.

والقابلية من القبول، وفعله قبل بمعنى رضي عن طيب خاطر أو بالإكراه. ولذلك اشتقت منه القابلية، بمعنى القبول النفسي والاستعداد للرضا، وما يترتب عليه من نتائج.

لكن الأمر يكبر ويصبح مشكلة تستحق النقاش والجدل عندما تخرج فئات تدّعي أنها من النخبة المثقفة أو السياسية، تروّج للاستعمار ومحاسنه وفضله على الشعوب. بل وتدعو لاستقدامه إلى البلاد ليغير أنماط الحكم، والحياة الاجتماعية والثقافية والدينية. وقد برزت مثل هذه الأصوات بعد أن غزت القوات الأميركية العراق. وكأنها كانت نائمة حتى جاء الوقت لتفصح عن أسوأ ما خلفته حقبة التوغل الأمريكي والتوحش الإسرائيلي.

وحقيقة الأمر، أن هذه الأصوات جاءت كمفرز لتراكمات ثقافية غذّتها المفاهيم الرأسمالية الغربية. وكذلك فإن وضع النظام العربي الرسمي ساهم بقصد وبنيّة مبيتة في تنمية وتقوية هذا الاتجاه في مواجهة التيارات الوطنية والقومية والإسلامية التي أصبحت رقماً صعباً في الصراع الفكري الأيديولوجي بين أمة العروبة والإسلام، وبين القوى الدولية والمحلية التي أفصحت عن عدائها وعن حقدها على الدين الإسلامي وعلى العروبة.

والواقع أن مفهوم القابلية للاستعمار ما كان لينتشر بين بعض الأفراد أو الأوساط المثقفة لولا الدفع الغربي المستمر لتيئيس أبناء العروبة والإسلام وجعلهم يقبلون بأي

obeikandi.com

شيء يفرضه الاستعمار أو القوى المهيمنة متنازلين عن كثير من مبادئهم وحقوقهم في حرياتهم وأراضيهم وثقافاتهم بل وهويتهم وشخصيتهم.

الغرب الأوروبي يزداد تماسكاً واتحاداً، بينما المسلمون يزدادون تفتتاً وانقساماً، الغرب الصناعي يزداد علماً وتطوراً تقنياً، بينما المسلمون العرب يزدادون بحثاً عن الحريات الشخصية والاجتماعية والسياسية. ينبهر أبناء الأمة بما آلت إليه أوضاع الدول المتقدمة فإما يهاجرون ليتركوا أوطانهم تعاني من الظلم والتخلف وفقدان كوادرها العلمية والفنية وإما يصبحون أبواقاً يروجون لثقافة الغرب ضاربين بعرض الحائط ثقافة أمتهم وتراثها. وإما يبالغون في تطرفهم وعدائهم لأمتهم فيدعون إلى إحياء الاستعمار من جديد ويرحبون بقدوم قوات أميركا أو غيرها تدير شؤون بلادهم السياسية والاجتماعية.

هذه المظاهر التي بتنا نراها هنا وهناك وتطفو على سطح وسائل الإعلام المحلية والدولية. ليست بنت ساعتها، إنما هي تراكمات تعود بالوراء إلى عشرات السنين.

لقد هاجر كثير من أبناء الأمة إلى البلاد المتقدمة صناعياً، أشبعوا من ثقافة تلك البلاد وسلوك مجتمعاتها. فمنهم من عاد ليدعو إلى تدمير الواقع العربي سياسياً واجتماعياً ومنهم من رأى أن السبيل الوحيد لسعادته الدنيوية هو الانفصال كلياً عن ماضيه وانتمائه وهويته وحتى اسمه، لأنه يتقزز عندما يقارن واقع أمته بالواقع الغربي الذي يعيشه. هكذا وصل ببعض أبناء الأمة الأمر، فكانت الدعوة للاستعمار والدفاع عن أنظمته السياسية والاجتماعية.

وفي كل ذلك يتناسى هؤلاء أن التخلف الذي يسود بعض مناطق الأرض العربية الإسلامية ليس سببه الواقع العربي نفسه إنما هناك من الأسباب ما يعجز الإنسان عن حصرها. فمنها أسباب خارجية فرضها الغرب وفرضته رؤيته العنصرية تجاه العرب والمسلمين. وهناك أسباب ذاتية فرضتها طبيعة النظام الرسمي العربي. وطبيعة العلاقات السيئة التي راحت تسود في المجتمعات العربية على حساب العلاقات السليمة التي كانت سائدة ومخفية عيوباً اجتماعية وُجدت على هامش القضايا الأساسية والحساسة في المجتمع. فلم يعانِ منها ولم تؤثر كثيراً في بنيانه.

لقد بدا الغزو الغربي لأرضنا وأمتنا منذ ما قبل بداية القرن العشرين، لكنه تجلى واضحاً مع نتائج الحرب العالمية الأولى. وعد بلفور، اتفاقيات سايكس بيكو، المخاضات والثورات وانتكاساتها، قيام الكيان الإسرائيلي على أرض فلسطين، حرب متلاحقة لم يربح فيها العرب ولا حرباً واحدة، قيام علاقات دبلوماسية بين اليهود ومصر والأردن وموريتانيا، وغزل مفضوح بين الكيان الإسرائيلي وعدد كبير من الدول العربية، علاقات تجارية سرية وعلنية، غزو سياحي وثقافي، غزو فكري واجتماعي واقتصادي، وأخيراً إقرارٌ بجلب الاستعمار إلى العراق وطحن الشعب الفلسطيني على الرغم من كل التضحيات.

إذاً، ما الذي يجري حتى ترتفع الأصوات النشاز لتقول: إن الأمة بحاجة إلى استعمار جديد للتخلص من الوضع المزري الذي تعيش فيه الأمة؟

هل الواقع السياسي يستدعي جلب الاستعمار للتخلص من أشكال النظام العربي السائد؟ وهل الواقع الاجتماعي يدفع هؤلاء لجلب الاستعمار ليغير أنماط حياتنا الدينية والفكرية والاجتماعية والتربوية؟

ما الذي أوصل الأمة إلى هذا المنحدر الخطير؟

ألم يكن المد الغربي الاستعماري هو السبب المباشر في كل هذا التراجع العربي الإسلامي؟ فالدعوى للاستعمار تغافل عن مآسي عشرات السنين التي ملأها الغرب جوراً وظلماً. وتغافل عن جوهر الغرب الفاسد الذي يحاول أن يغطيه بمظاهر الحرية الفردية والاجتماعية والتقدم الصناعي والتكنولوجي.

وبدا أن التطرف في هذه الدعوة يأتي اليوم على يد أبناء الأمة ممن يسمون الإصلاحيين الجدد. فمن هنا وهناك راحت تعلو أصوات هؤلاء مهاجمةً الدين الإسلامي وتراثه، ومهاجمة الهوية العربية الإسلامية. بل وتتجرأ أحياناً لمهاجمة التاريخ الإسلامي وشخصياته وتصطنع سدوداً أمام آفاق الأمة وأهدافها بل وحتى أحلامها.

وللأسف الشديد فإن من يطلع على خلفيات هؤلاء الدعاة الإصلاحيين سيجد أنهم ممن دافعوا في أوقات سابقة عن الماركسية والشيوعية وكنا نحسبهم على ما يسمى اليسار العربي. فإذا بهم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ينقلبون إلى إصلاحيين ينادون بتمثل

obeikandl.com

الثقافة الغربية والفكر الغربي، بل وتمثل السلوك الاجتماعي الغربي مهما كان فيه من انحراف وشذوذ وفوضى وامتهان لكرامة الإنسان. وتخرج منهم ما لم يخرج من غيرهم. حيث راحوا يدعون لجلب الاستعمار للقضاء على النظام العربي الرسمي ظانين أن بعض أشكال هذا النظام تستغني عنه أميركا أو تهدده. والمفترض أن يدركوا أن أمريكا وغيرها من دول التجبر في العالم تدعم بعض هذه الأنظمة بالمال والمخابرات وتقويها بكل الأشكال حتى تقضي على الصحوة العربية الإسلامية. وتقمع كل الحريات باسم الحرية وتكرس حكم الفرد باسم الإصلاح. وللأسف فإنهم مرة أخرى يدافعون عما يسمى الديمقراطية الأمريكية الغربية وفي الوقت نفسه يتغافلون عن موقف أمريكا وبعض الغربيين تجاه قضايا الشعوب العربية والإسلامية.

على أية حال، فإن القابلية للاستعمار تصبح اليوم على يد هؤلاء ترويجاً لمسخ الشخصية العربية الإسلامية. فالإنسان العربي والمسلم ليس منقطع الدين والجذور التاريخية والهوية، ولا هو بلا عمق تراثي أو أفق مستقبلي. فهو إنسان فيه فطرة وفيه دين وفيه تاريخ وتراث وفيه تطلع نحو حياة أفضل يصطفيها حسب ما يراه مناسباً لواقعه. وليس حياة يريدها له الغرب ويفصلها له حسب مزاجه.

ولكنهم يحاولون أن يصوروا هذا الإنسان العربي المسلم وكأنه نفض عقله ونفسه ونفض يديه من كل علاقة مع تاريخه وهويته. مع عقيدته وتراثه وشخصيته.

ومع الأسف أيضاً، أن وسائل الإعلام الرسمية المرتبطة بشكل عام بالنظام الرسمي العربي تفتح لهم أبواقها وإمكاناتها وبرامجها حتى يعلو صوتهم لتبهت وتضعف الأصوات الحرة الرافضة لهذا التزييف للشخصية العربية الإسلامية.

لقد ظنوا أن بعض المفكرين المسلمين ومنهم المفكر المسلم مالك بن نبي عندما قالوا عن قابلية للاستعمار لدى بعض أفراد الشعب العربي فإنهم يؤكدون هذه القابلية منذ زمن بعيد وقد تناسوا تماماً أن مالك بن نبي وأمثاله لم يكونوا يكتبون عن ذلك إلا من خلال حرصهم على تحريض الأمة لمقاومة الاستعمار وشحذ همم أبنائها لرفض أي تمثل للغرب فيه مساس بالشخصية العربية المسلمة.

obeikandi.com

وفي جميع الأحوال، فإن ما يجري في فلسطين والعراق وغيرهما من البلاد المسلمة يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن الشعب العربي والمسلم يرفض الاستعمار شكلاً ومضموناً، ولذلك، يقدم نموذجه في المقاومة والجهاد مهما بلغت التضحيات.

وفي المجال الفكري فإن المفكرين المسلمين والعرب بشكل عام لا يألون جهداً في التصدي لحملات التغريب والدعوة للاستعمار والغزو الفكري والثقافي. ولئن بدا أن بعض الأصوات النشاز راحت تعلو عبر وسائل الإعلام وظن الناس أنها تشكل قوة يحسب لها حسابها، فإن الواقع والتاريخ القريب والبعيد يقولان لنا إن مثل هذه الأصوات سمعناها سابقاً وسنسمعها لاحقاً. ولكنها لا تعبر عن الشخصية العربية المسلمة ولا تعبر عن ضمير الجماهير العربية المسلمة العريضة.

وقد يظهر أن هذا الحديث عاطفي وجداني يحتاج لموضوعية، لكننا نقول: إننا كعرب ومسلمين نحتكم إلى نصوص القرآن الثابتة التي وضعت للأمة رؤية إستراتيجية متكاملة حول دفع العدوان وكيفية التعامل معه. ولو عدنا إلى كافة نصوصه لما وجدنا تقزيماً لشخصية المسلم ولا نجد أي سمة من سمات الضعف تلتصق بهذا الإنسان.

ولو كان هذا الإنسان لديه قابلية للاستعمار لأعلن موته الحضاري الوجودي. لكنه ـ وهذا ما نراه اليوم ـ يدافع عن وجوده ليبقى فاعلاً. ويدافع عن حضارته ووجوده الحضاري في وجه الزحف العولمي المستشري.

لقد اختار الله سبحانه هذه الأمة لترث الكتاب وتكون أمة شاهدة على الناس ويكون الرسول شهيداً عليها. اختارها واختار لها دوراً عالمياً إنسانياً تؤديه ما بقيت الحياة. فكيف يكون لديها قابلية للاستعمار وهي المنوطة بتحمل مسؤولية إعمار الأرض وإصلاح فسادها ومقاومة إفساد المفسدين فيها.

فكيف يروق لأناس يحسبون أنفسهم على هذه الأمة أن يمسخوا دورها ويشوهوا رسالتها؟

كيف يروق لهم أن ينسفوا تاريخها وينسوا تضحياتها وشهداءها؟

ثم، كيف يروق لهم أن يدعو للاستعمار الذي سرق خيرات الأمة ونكل بأبنائها ويريد أن يقضي عليها؟